الجامعات في التاريخ

احتفلت مصر في ٨ فبراير الماضي بوضع الحجر الاساسي في بناء الجامعة المصرية الجديد وشرف الاحتفال جلالة مليك البلاد ووضع الحجر بيده الكريمة فرأينا ان تثبت فيما يلي صفحات من تاريخ انشاء الجامعة المصرية وافتتاحها سنة ١٩٠٦ وسنة ١٩٠٨

مدارس العلم قديمة شادها الكلدانيون والمصريون قبل ان ظهرت تباشير العمران في اوربا وكانوا يعلّمون فيها الطب والفلك والحكمة ثم اقتفى اليونان خطواتهم وتبعهم الرومان . وقبل ان نهض الرومان لاخذ العلم عن اليونان واحياء معالمه كان البطالسة قد اخذوا القطرَ المصري نصيبهم من ملك الاسكندر المكدوني وانشأوا في الاسكندرية مدرسة ومكتبة فاقتا مدارس الدنيا ومكاتبها . وظلت مدرسة الاسكندرية منارةً للعلم ومربعاً للفلسفة نحو سبعة قرون ثم تقوّضت اركانها وهجرها العلم والعلماء

ولم يعنَ المسيحيون في اول امرهم بالعلم الزمني بل حصروا همهم في العلم الديني لانهم كانوا يتوقعون انقضاء العالم وما فيه فسبقهم الفرس والعرب وانشأ كسرى انوشروان مدرسة الحكمة والطب في جنديسابور سنة ٢٥٠ للمسيح فدامت الى زمن العباسيين واقتفى الخليفة المنصور العباسي اثرهُ فانشأ داراً للعلم في بغداد ولما تولى الخلافة هرون الرشيد رفع منار العلم وقرّب اليه العلماء واوجب ان يبنى كتّاب بجانب كل جامع . ثم لما خلفهُ المأمون زهت في خلافته العلوم وأينعت حدائق المعارف

وانتشرت بعد ذلك المدارس في دمشق وبغداد والبصرة وبخارى والاسكندرية والقاهرة ومراكش وفاس والاندلس وكان في القاهرة وحدها عشرون مدرسة كبيرة سنة الف للميلاد وفي قرطبة من بلاد الاندلس سبعون مكتبة كبيرة حافلة بالكتب النفيسة . وكان في كل كورة من كور الاندلس مدرسة كبيرة عدا المدارس الصغيرة . وحسبوا انهُ كان في قرطبة وحدها سنة ١١٢٦ للميلاد مائة وخمسون مؤلفاً وفي المرية اثنان وخمسون وفي برتقال خمسة وعشرون وفي مرسية واحد وسبعون عدا ما كان في اشبيلية وغرناطة وبلنسية . وانهُ قام من العرب الف وثلثمائة مؤلف في التاريخ فقط . قال المقري: «ان اهل الاندلس كانوا احرص الناس على العلم فالجاهل الذي لم يوفقهُ الله للعلم يجهد ان يتميز بصنعة ويربأ بنفسه ان يُرى فارغاً عالةً على الناس لان

هذا عندهم في غاية القبح. والعالم عندهم معظَّم من الخاصة والعامة يشار اليه ويحال عليه وينبه قدرهُ وذكرهُ عند الناس ويكرم في جوار او ابتياع حاجة وما اشبه ذلك »

وبلغ من عناية الحكم المستنصر بالعلم والكتب العلمية ان بعث الى افريقية وبلاد فارس ومصر وبلاد العرب يشتري الكتب او ينسخها اذا لم يتهيأ لهُ ابتياعها وكتب بنفسهِ الى مؤلفي زمانهِ يطلب منهم كتبهم واجازم عليها خير الجزاء حتى جمع على ما يقال اربعمائة الف مجلد او ستمائة الف مجلد

قال ابو الفرج المطي نقلاً قال القاضي صاعد بن احمد الاندلسي قاضي طليطلة الذي توفي سنة ٤٦٢ للهجرة : « ان العرب في صدر الاسلام لم تعن بشيء من العلوم الاَّ بلغتها ومعرفة احكام شريعتها حاشا صناعة الطب فانها كانت موجودة عند افراد منهم غير منكورة عند جماهيرهم لحاجة الناس طرًّا اليها فهذه كانت حال العرب في الدولة الاموية . فلما ادال الله تعالى للهاشمية وصرف الملك اليهم ثابت الهمم من غفلتها وهبَّت الفطن من سنتها فكان اول من عني منهم بالعلوم الخليفة الثاني ابو جعفر المنصور وكان مع براعتهِ في الفقه كلفاً في علم الفلسفة وخاصة في علم النجوم . ثم لما افضت الخلافة فيهم الى الخليفة السابع عبدالله المأمون بن هرون الرشيد نهم ما بدأ بهِ جدهُ المنصور فاقبل على طلب العلم في مواضعهِ وراسل ملوك الروم وسألهم صلتهُ بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا اليهِ منها ما حضرهم فاستجاد لها مهرة التراجمة وكلفهم احكام ترجمتها فترجمت لهُ على غاية ما امكن ثم حرَّض الناس على قراءتها ورغَّبهم في تعلمها فكان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظرتهم ويلتذ بمذاكرتهم علماً منهُ بأن اهل العلم هم صفوة الله من خلقهِ ونخبتهُ من عبادهِ لانهم صرفوا عنايتهم الى نيل فضائل النفس الناطقة وزهدوا فيما يرغب فيهِ الصين والترك . . . فلهذا السبب كان اهل العلم مصابيح الدُّجى وسادة البشر واوحشت الدنيا لفقدهم »

واقتفى كثيرون من العباسيين آثار المأمون واقتدى بهم الفاطميون في مصر والامويون في الاندلس فانتشرت مدارس العرب من سمرقند وبخارى شرقاً الى فاس وقرطبة غرباً . وكان الملوك والامراء ينفقون عليها النفقات الطائلة فقد نقل المؤرخ جبون الانكليزي ان احد الوزراء انفق مائتي الف دينار (نحو ١٢٠ الف جنيه) على انشاء مدرسة جامعة في بغداد واوقف عليها ما ريعهُ خمسة عشر الف دينار (تسعة آلاف جنيه) كل سنة (ولعلهُ نظام الملك الطوسي والمدرسة هي المدرسة النظامية المشهورة)

وكان في احدى مكاتب القاهرة مائة الف مجلد في العلوم والفنون وكان يباح لكل احد ان يطالع فيها ويستعير ما شاء منها وبلغ عدد كتب الفلك والطب فيها ٦٥٠٠ مجلد

هذا ولا نطيل اكثر من ذلك في وصف مدارس العرب وخدمتهم للعلم ولكن لم يدخل القرن الحادي عشر والثاني عشر حتى مالت شمس المعارف من الشرق الى المغرب وجعلت اشعتها تنتشر في ربوع اوربا وتتقلص عن ربوع اسيا وافريقية وكان انتشارها اولاً في ايطاليا . فانشئت مدرسة سالرنو في القرن التاسع واشتهرت بفرعها الطبي في القرن الحادي عشر حتى كان الطلبة يفدون اليها من كل اقطار اوربا . وانشئت مدرسة بولونا في اواخر القرن العاشر واشتهر قسمها الحقوقي في القرن الثاني عشر وصارت سنة ١٢٠٦ تعطي لقب الدكتورية في الطب والحقوق واللاهوت

ونشأت مدرسة باريس منذ عهد بعيد ثم انتظمت اقسامها الاربعة الحقوق والطب والفنون واللاهوت في اوائل القرن الثالث عشر وانشئت مدرسة سوربون فيها سنة ١٢٥٣ ولم يختم القرن الرابع عشر حتى صار في فرنسا اربعون مدرسة كلية . وانشئت مدرسة سلامنكا سنة ١٢٤٢ وظلت خمسمائة سنة فخراً لاسبانيا . ولا يعلم الزمن الذي انشئت فيه مدرسة اكسفرد تماماً ولكنها كانت في بداءة القرن الثاني عشر وناظرت مدرسة باريس في القرن الثالث عشر . وصارت مدرسة كمبردج جامعة سنة ١٢٣٣ . وانشئت مدرسة براغ الجامعة سنة ١٣٤٨ ومدرسة فينا سنة ١٣٦٥ . ثم كثر انشاء المدارس الجامعة حتى عمّت اوربا واقتفى الاميركيون آثار اسلافهم الاوربيين وفاقوهم في الانفاق على المدارس الجامعة حتى لا يندر أن يوقف احدهم على المدرسة مليون جنيه او مليوني جنيه او اكثر

وقد طالما وددنا لو انشئت مدرسة جامعة في هذا القطر وخاطبنا بعض اصدقائنا الاميركيين في نقل المدرسة الكلية الاميركية من بيروت الى القطر المصري وتتبعنا الهبات الاميركية التي توهب للمدارس الجامعة حتى صارت مطلبنا الاول في الجرائد العلمية فنقتش عنها قبل غيرها ونثبتها في المقتطف لعلنا تثير الغيرة والحمية في نفوس بعض الاغنياء فيقتدوا بكرماء الاميركيين وكذا تنال المراد بما اظهره المرحوم منشاوي باشا من العزم على القيام بذلك قبيل وفاته (المقتطف صفحة ٨٧٣ سنة ١٩٠٦)